السقامات ..

قصة طويلة ليوسف السباعي

للاستاذ كارنيك جورج ميناسيان

لعل الأستاذ السباعي من أكثر الأدباء المصريين إنتاجاً ، فهو ينتج بمعدل أربعة كتب في العام الواحد عدا القصص القصيرة الأخرى التي يكتبها للصحف . ونحن لا نحاسب الكاتب على كثرة نتاجه أو قلته ، وإنما نحاسبه عن النتاج نفسه ، وعن قيمته الفنية والأدبية والاجتماعية

لو تأملنا كتابات السباعي السابقة ثم تأملنا كتابه الأخير لوضعنا الكتب السابقة كلها في كفة ، وكتاب السقامات في كفة أخرى . ! فالكاتب في كتبه السابقة كان يتأرجح بين أساليب شتى . لا تربطه صفة واحدة ، ولا يميز مؤلفاته أسلوب خاص ! كان يكتب لمجرد الكتابة . كان يكتب كي يعد (مسامرات الجيب) بقصة كل أسبوع ، ولا شك أن هذا (الروتين) في الإنتاج الأدبي قد يجعل الكاتب يغض النظر من القيم الفنية بعض الشيء ، فيحصر اهتمامه في إعداد قصة قبل الوقت المعين !

أما في (السقامات) فقد ظهر للقارئ بأسلوب مميز خاص . وبقلم الكاتب المتمكن المتعمق . فالكتاب يقع في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط . فليس تأليفه إذن من السهولة بمكان ! فالشوط الطويل الذي قطعه السباعي قد تقصر دونه الأنفاس ، وتكل الأيدي ، وتجهد الأذهان ؛ لكن أنفاس السباعي لم تقصر ، ويده لم تكل ، وذهنه لم يجهد ! فقد مضى بكل اعتداد، وبكل جرأة، وخطا الخطوة الأولى . حتى انتهى إلى الخطوة الأخيرة . ومن هذه الناحية استحق كل إعجاب

نعود إلى الكتاب فنتأمله بعين فاحصة ، فنراه يشمل قصة محلية ، من الجو المصري القديم . قصة شبيهة بقصة (زقاق المدق) لنجيب محفوظ . من حيث البيئة، وتعدد الأبطال، والفكرة المستترة وراء الحوادث.. وفي إعطاء صورة صادقة للجو المحلي القديم في مصر. فالقصة قصة بيئة. لا قصة أسرة، قصة جماعة من الناس جمعتها الحياة في صعيد واحد ، ولونتها الحياة بلون واحد . فكل أفرادها من الطبقة الفقيرة التي تكدح طول النهار، ولا تكاد تظفر باللقمة التي تشبع !

لقد حاول الكاتب محاكاة نجيب محفوظ ، كما هو واضح في رسم الشخصيات ، ولكن محاولته لم تنجح مثل نجاح محفوظ . فهو في بداية قصته تطرق إلى شخصيات كثيرة ، حشرها ضمن محور القصة ، وجعلها من أبطالها الأولين ، كما فعل محفوظ . لكنه لم يكد يخطو خطوات ، حتى ترك أكثرها في حالها .. واقتصر على قسم منها محدود ! في حين ترى محفوظ لا يترك شخصية واحدة تفلت من نطاق قصته..إنه يسيطر عليها سيطرة تامة ، فيحصرها حصرا ، ويجعلها في القصة ذات أثر فعال

مجمل القصة: السقا شوشة يعيش مع ولده وأم زوجه المتوفاة ، عيشة راضية ، وهو إذ يتغدى ذات مرة ، عند (الحاجة زمزم) المرأة المخيفة ! يصادق (شحاته أفندي) الذي كان قد جاء إلى (مسمط زمزم) ليأكل على الحساب .. بناء على دعوة من الحاجة اعتبرها دعوة حب . . وغرام ! كان جيبه فارغا ، فلما فقد كادت الحاجة زمزم تجرده من ثيابه بعد أن عجز عن دفع ثمن ما أكل . فتدخل شوشة في الموضوع ودفع الثمن منقذاً الأفندي من براثن الحاجة ! وبعد ذلك نرى شحاته الذي يعمل في توديع الأموات إلى قبورها يعيش مع شوشة ، كما نراه يأخذ شوشة إلى قهوته ، ويعرفه بأصحابه ويبسط له مهنته . ! حتى ينام شحاته أفندي ذات يوم على أمل أن يستيقظ فيذهب إلى موعد فراق اشتراه بخمسين قرشا من (تاجر الأعراض) الداعر ! ينام الرجل فلا يستيقظ ! لا يستيقظ أبدا . ولا يلبث المعلم شوشة أن يأخذ مكانه في المهنة ، مستعملا نفس البدلة التي كان يستعملها المتوفى ، لأنه يريد أن يتعرف إلى سر الموت ! الموت الذي خطف منه زوجه ، وتركه وحيدا محروما . وتقبل

عليه الدنيا فيرتقي إلى رئيس للسقايين . يتحكم في توزيع المياه على الزبائن ، ولكنه لا يترك مهنة المتوفى . حتى يفاجئه ولده بمخاوفه ، طالباً إليه أن يكف عن توديع الموتى ، فيعده الرجل ، لكنه في اليوم التالي لا يغادر فراشه ، فيحل ولده محله في توزيع المياه ! وما أن ينتهي من ذلك ويعود إلى أهله ، حتى يجد البيت قد انهار وقضى على أبيه ! فلا يلبث الابن أن يسرع فيرتدي بدلة شحاته أفندي ، الخاصة بتوديع الأموات .. فيمضي أمام نعش أبيه ليودعه القبر الأخير ، إنه أيضا يريد أن يكشف من الموت سره ..!

.. وتنتهي القصة والابن قد أصبح أبا ، وتربع على عرش المياه مكان أبيه ، وقد وضع بالقرب منه لافتة فيها هذه الآية الكريمة (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

والغريب أن الكتاب يبدأ بهذه الآية وينتهي بها ، كما أنها تتردد في حوار القصة أربع مرات تقريباً دون أن يكون بينهما وبين القصة صلة ما . ! لعل المؤلف يريد أن يعزي أبطاله ويمسح على مصائبهم وهم في غير حاجة إلى ذلك . فالآية مفروضة فرضاً ، محشوة حشواً ! فالصلة بعيدة بينها وبين مغزى القصة كما قلت ، فأين الصابرون ؟ بل أين الفواجع التي صبروا عليها ؟ الحوادث كلها بسيطة عادية ، لا تدعو إلى الصبر ، لأنها توحي بالقناعة ، وبالأحرى من أناس مثل أولئك الفاسقين الراضين ، وإن كان المؤلف قد افتعل موت الرجلين افتعالا ، إذ حرمهما الموت الطبيعي و ذلك لم يتمكن أن يجعل أبطاله من الصابرين المؤمنين ، لأنه جعلهم يشعرون أن الموت جاء بالمصادفة وأن القدرة الخفية لا دخل لها فيه

لقد فاجأنا المؤلف بموت شحاته افندي في منتصف القصة وشحاته هو الوحيد الذي يسيطر على انتباه القارىء وجذب اهتمامه ، لأنه الوحيد — حتى ذلك الوقت — الذي كان يسعى إلى هدف فيجعل للقصة مسحة من التشويق ، فاجأنا بموته ، وبذلك ماتت عقدة القصة ، وتلاشى التشويق ، وكأنما انتبه الكاتب إلى خطئه ، فكشف للقارىء عن عقدة أخرى .. كانت مختفية عنه حتى ذلك الوقت ، وبطل هذه العقدة شخصية شوشة .. الذي أخذ يسعى إلى كشف سر الموت واستجلاء أمده !

ولنا ملاحظة أخرى بشأن شحاته افندي . فقد جعل له المؤلف شخصية ماجنة عابثة تتأثر حين ترى أمامها امرأة . فهو يتغزل حتى في الحاجة زمزم ، الضخمة المخيفة . ! ثم عاد — المؤلف — وأسكنه مع المعلم شوشة ، ونحن نعلم أن هناك ، في أعلى شقة هذا الأخير تقطن أسرة (على الخشت) ان لهذه الأسرة فتاة ناضجة ، تتردد على أسرة شوشة فتساعد الضريرة أم آمنة فإذا ما نزل شحاته عند شوشة لم نعد نرى أثراً للفتاة ! وكان المتوقع أن يراها شحاته ، وأن تحدث بينهما أشياء .. ! فما الذي جعل الفتاة تختفي من مسرح الحوادث بمجرد ظهور شحاته ؟

وهناك أمر آخر . فإن شوشة بعد موت شحاته أخذ مكانه وصار هو الآخر من (الأفندية) يودع الموتى إلى القبر الأخير في وقت أصبح فيه موظفاً في تصريف المياه . أي أنه يجب عليه أن يعمل طول النهار في وظيفته ثم يزاول مهنة شحاته بعد ذلك أي عند المساء . وهنا بعض التناقض ، لأننا رأينا شحاته قد تأخر قليلا ذات صباح فزجره الحانوتي الرئيس ! فكيف لا يتأخر شوشة ؟ وهو لا يزاول هذه المهنة إلا ليلا ، مع العلم أن الموتى لا يدفنون إلا في النهار !

لقد اهتم المؤلف برسم شخصية (الحاجة زمزم) اهتماما كبيرا حتى جاء رسمه بليغا رائعا مثيرا ؟ فحسبنا أن لها أثراً كبيراً في القصة أو أنها هي البطلة الأولى فيها ؟ ولكننا وجدناها تختفي تماما من مسرح القصة ، ثم تعود قبيل النهاية ؟ عودة قصيرة ؟ تخيب آمال القارىء وهي مع ذلك عودة مفتعلة ! جاءت على إرسال الأب ابنه إليها ليطالبها بالريال المتبقي له عندها ، لأنه لا يملك شيئا أبداً ! وهنا الكثير من الضعف ، لأن الأب قد أقبلت عليه الدنيا ، وأصبح رئيساً للسقايين ، كما أنه يعمل سرا في دفن الموتى ، وأن الموتى كثيرون كما قال المؤلف ! وقد رأيناه في الليلة السابقة في الحمام مع ابنه يدفع المال بسخاء ، فكيف بنا نجده في الصباح خالي الجيب تماما ! كان الأوفق للكاتب ألا يكلف نفسه إعادة الحاجة زمزم ، وأن يجعل له حيلة أخرى لإبعاد الابن من أبيه كما يتهدم البيت وهو عنه بعيد !